بحوث ودراسات

العلمانية في الفكر الصهيوني المعاصر

المدرس الدكتور
حميد فاضل حسن (*)

تعد الأفكار حصيلة التلاقي والتفاعل بين أبعاد وركائز متعددة فهي لا تنطلق أو تنتشر إلا في إطار متعين جغرافي تمثله وحدة سياسية اجتماعية هي الدولة ، وأيضاً في إطار بيئة إنسانية تمارس دور الإنتاج ودور التطوير وربما التغيير في وقت لاحق وكذلك في إطار بيئة فكرية ومعرفية يلعب نوع وطبيعة واتجاه نمط الإنتاج الاقتصادي والاجتماعي دوراً في تحديد فاعليته من عدمه . والفكر الصهيوني تجسيدٌ صادق للعلاقة بين هذه الأبعاد فهو قد نشأ وبرز في إطار الدولة الأوروبية المتطلعة والراغبة والمتوثبة إلى دور نهوض وزعامة عالميةفكان لابد أن يأخذ الفكر الصهيوني جزءاً من هذا التطلع وهذه الرغبة كما أن الفكر الصهيوني عاش في بيئة إنسانية جسدها إنسان أوروبي عامل ونشيط وتواق لتحقيق ذاته فكان هذا جانباً متخيَّل عند الإنسان الصهيوني وهو يتطلع لبناء ذاته بجهود خاصة لا يعبأ حتى ولو كان هذا البناء على حساب إنسان آخر هو صاحب الحق المشروع في هذا المكان ، كذلك إن الفكر الصهيوني استنشق هواء التنوير حيث أوروبا الحداثة والأنوار والعقلانية والعلمانية فاستوعبها وتعامل معها داخلياً وكان ذلك في دائرة من آمن بأفكاره السياسية واستبعده خارجياً في تعامله مع الفلسطينيين ، والفكر الصهيوني بعد ذلك عاش في إطار مجتمعات أوروبية كانت تتململ اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً فاستفاد هو من ذلك وتململ أيضاً وفق هذه الأبعاد . إن الصهيونية وفق هذا التصور تمثل جزءاً من نتاج البيئة الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية الأوروبية وهي بيئة تجاوزت الهيمنة والتسلط الديني فكان لابد وفق ذلك أن تكون الصهيونية فكراً سياسياً علمانياً في أنساقه وأبعاده الفكرية والمعرفية. وهذا البحث يحاول أن يدرس الصهيونية كحركة علمانية وفق ثلاثة محاور عني الأول بالإطار النظري للدراسة والمرتبط بالعلمانية والإشكاليات التي تعتري التعاطي مع هذا المفهوم وحاول الثاني أن يدرس علاقة العلمانية بالجماعة اليهودية والبحث في الأسباب التي جعلت اليهود رواد في الحركات الرامية إلى نشر وإذاعة العلمانية أما الثالث

(*)مدرس / كلية العلوم السياسية-جامعة بغداد

فذهب إلى تأكيد الفرضية التي يقوم عليها هذا البحث والقائلة إن الصهيونية حركة علمانية لا ترتبط بالدين اليهودي إلا بالمقدار الذي يمكنها من تحقيق أهدافها السياسية فهي قد استفادت من الدين ووظفته بمهارة لتحقيق أهدافها العلمانية دون أن يكون الدين أحد متبنياتها الفكرية في أي مرحلة من مراحل تاريخها .

أولاً مفهوم العلمانية

قد يكون البحث عن معنى محدد للعلمانية متفق عليه بين كتاب السياسية أو الدين أو أي علم ذي صلة بهما أمراً غاية في الصعوبة لأن أي محاولة في هذا الاتجاه سوف تصطدم بمجموعة إشكاليات معرفية وفكرية ترتبط بالمقام الأول بما يحتويه هذا المفهوم من هذه الأنساق والمنظومات وفي الأغلب الأعم تتمحور هذه الإشكاليات حول مستويين اثنين هما :

1. مستوى اللغة: في هذا الإطار نجد أن اللغات العالمية تختلف فيما بينها في تعريفها للعلمانية ، ففي البلدان المسيحية التي يغلب على تدين أفرادها المذهب البروتستانتي تبرز كلمة secularism الإنجليزية وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية (seculum) وتعني الفريق أو الفئة وقد جرى تداول هذه الكلمة بمعنى العالم الدنيوي قبال العالم الروحاني السماوي ، أم البلدان المسيحية الأخرى التي اصطبغ إيمان أبنائها بالمذهب الكاثوليكي وخاصة في فرنسا فقد شاع استعمال مفردة (Laicite) الفرنسية بمعنى العلمانية وهي مفردة مشتقة من كلمتين يونانيتين هما : (laos) وتعني الشعب و(Laikos) وتعني عامة الناس في قبال رجال الدين(1). وفي اللغة الفارسية ترجمت كلمة : (secularism) إلى الناسوتي الدنيوي العرفي والأرضي أما في اللغة العربية فقد أثار استعمال العلمانية معادلاً أو موازياً ل(secularism)جدلاً وخلافاً واسعين في أوساط الكتاب والمفكرين العرب فبعضهم فضل استعمال كلمة العلمانية بكسر العين وذلك برأيهم تعبير ودليل على كون الكلمة مشتقة من العلم وتستبطل الدعوة إلى العلم وبذلك عدوا الدعوة إلعلمانية دعوة إلى العلمية نفسها بل انخرط بعضهم بنوع من الإفراط على هذا الصعيد عندما جعلها بمعنى (نمذجة) العلوم الطبيعية والتجريبية أمام بقية العلوم والمعارف الأخرى فالعلماني _وفق هذا التفسير_ هو ذاك الذي لا يعترف بإمكانية المعرفة الأخلاقية أو الدينية ذلك أن هذه العلوم _كما يرى_ لا تخضع للمعايير المعتمدة على صعيد المعرفة التجريبية في العلوم الطبيعية ، أما أولئك الذين فضلوا أن يستعملوا كلمة العلمانية بفتح العين فأرادوا القول إنها مشتقة من العالم وتستبطن ترويج الجانب الدنيوي على الأخروي والتركيز على الإمكانات المادية للبشرية من قبيل العقل بدلاً من الإرتكاز على الوحي أي أن هؤلاء يصرون على استقلال العقل البشري على كافة الصعد والمجالات من دون احتياجه إلى المسائل الدينية والمعنوية(2).

وأياً كان الاختلاف والتنوع الكبير والواسع الذي اكتسبه مفهوم العلمانية بين اللغات والبلدان وعبر المراحل التاريخية المختلفة فلم يكن يخرج عن اعتبار العلماني هو من غير رجال الدين أو خارج عن المؤسسة الدينية فقط ولم يكن يحمل أي مضمون آخر عدائي للدين أو غيره .

2. مستوى الدلالة: في هذا المستوى يلاحظ أن دلالة مفهوم العلمانية قد تبدلت على مر الزمان من كل شيء غير ديني لتصبح معاداة الدين ومناهضته إلى جانب مخالفة رجال الدين(3). وكان هذا التغيير نتيجة طبيعية ومنطقية للتطورات الفكرية التي رافقت عملية الانتفاض على الكنيسة وسلطتها المطلقة وبوسعنا أن نضع هذه التطورات الفكرية على مرحلتين تفاوت فيهما مفهوم العلمانية : ففي الأولى تمثلت عند توماس هوبز الذي كان ينفي وجود سيادة الكنيسة ويطلب الخضوع التام لسيادة الدولة الكاملة وديفيد هيوم الذي رغب الإبقاء على الكنيسة كحاجة نفسية دون السماح لها بالتدخل في شؤون الدولة وجان جاك روسو الذي رفض وجود كنيسة إلى جانب السلطة السياسية ، ويلاحظ على هذه الأفكار أن أهم خاصية لهذه المرحلة هي استبعاد الدين عن التحكم بسلطات البلاد السياسية وأما الثانية فقد كانت أكثر تطرفاً وتمثلت في أفكار فيورباخ وكذلك ماركس وهذه المرحلة عرفت بالعلمانية المتطرفة فقد كان هدفها نزع الدين عن الناس والتخلص من وجوده ليس في إطار السياسة فحسب وإنما في إطار المجتمع بأكمله(4) .

إن هذه الفكرة التي تقوم على خروج الحياة العامة من تحت سلطة رجال الدين بل من تحت سلطة الدين نفسه قد شوهت _في تقديرنا_ مفهوم العلمانية وجعلته عند الكثيرين مرادف للإلحاد وعلى كونه عدمي للدين وأثار إشكالية فكرية وسياسية قوامها مدى إمكانية أن يتمتع الفرد بحريته في التعبير وأيضاً في ممارسة أفكاره وآرائه ومعتقداته الدينية في إطار نظام علماني(5) .

ونحن نعتقد أن تجاوز هذا الإشكال والتخلص منه يتطلب التأكيد على جملة من الحقائق أهمها :

- العلمانية لايمكن أن تعد إلحادية أو مضادة للدين ، فتأكيد العلمانية على الاستقلال المعرفي للعقل البشري لا يشكل _بحد ذاته_ أية مواجهة مع الإيمان والمعتقدات الدينية وبالرغم من إحداثه مشكلات جدية لبعض المعارف الدينية ولبعض التفاسير الدينية ولبعض التصورات عن الدين من المؤكد أن نطاق الدين يخضع للتحديد علمانياً فالأمور التي يمكن الوصول إليها عن طريق العقل والعلم البشريين تخرج تلقائياً عن دائرة الإيمان والتدين ، ما يجعل الظنون وحدس الفهم البشري مقدمة على الجزم والقطع الناشئين من الرجوع إلى الدين ومن ثم فالعلمانية تعمل على أن يكون المعتقد الديني موزوناً ومحاكماً من الناحية العقلية والمنطقية البشرية . فأساس التعلمن إذاً هو الاعتراف بالتوجه المعرفي والعقلاني للعلمانية لا

محاربة الدين أو الاعتقاد الديني . إن العلمانية ترى أن دائرة الدين ونفوذه تتحدد بكل مجال لا يصل إليه العقل البشري ، هذه الأمور أمور شخصية مرتبطة بعلاقة الإنسان وخالقه ومن حق الفرد البشري أن يكون له موقف وقرار فيما يتعلق بهذه الأمور ومن هنا لا علاقة للعلمانية فيما يرتبط في تأييد هذا الأمر أو رفضه وهي لذلك تعتقد بالتساهل أو التسامح والمداراة فيما يخص قضية الإيمان والتدين وليس المراد من هذه المداراة الإلحاد واللا مبالاة بالدين . ومن هنا فالتعلمن والتدين منسجمان مع بعضهما البعض ، نعم تفسير خاص للتدين هو الذي يمكنه من تحمل محورية العقل والتوجه المعرفي العلماني .

- من هنا يجب العمل على تصحيح الفهم الخاطئ للعلمانية وهو إنها الفصل القسري ما بين الدين والمجتمع الأمر الذي تولد منه سوء الفهم القائل بأن العلمانية هي المرادف للعدمية الدينية والإلحاد .
- وعلى أساس ما تقدم نرى أنه من الخطأ تصنيف النظم السياسية على ثنائية نظم علمانية ونظم دينية والصحيح نظم علمانية وأخرى غير علمانية ، لأن هناك نظم غير دينية ولكنها غير علمانية أيضاً مثل : (نظام ستالين وهتلر والبعث) هذا فضلاً عن النظم الدينية طبعاً .
- وعلى أساس ما تقدم من فهم للعلمانية وعلاقتها بالدين في إطار الدولة نرى ضرورة أن يؤكد نظام سياسي على الفصل الوظيفي ما بين عمل المؤسسات الدينية وعمل المؤسسات الدينية الحكومية وبما يضمن منع هيمنة رجل السياسة على المؤسسات الدينية من جهة وهيمنة رجل الدين على المؤسسات الحكومية من جهة أخرى .

وعلى أساس هذا التحديد والتعيين لمفهوم العلمانية سنحاول دراسة فكر الحركة الصهيونية بعده فكراً علمانياً.

ثانياً : العلمانية والجماعة اليهودية

يربط الكثير من الباحثين بين القرار الذي أصدرته فرنسا في عام 1771/م والذي اعتبرت فيه اليهود المقيمين في الأراضي الفرنسية مواطنين لهم نفس الحقوق والواجبات دليلاً على أن اليهود قد غذوا مفهوم العلمانية إن لم يكن قد اخترعوه ، كما كان لهم دور كبير في انتشاره(6). فقد اطلعت الجماعة اليهودية بدور أساس في حمل الفكر العلماني وبرز الكثير من اليهود كأدوات للعلمنة بل وأكثر من ذلك أصبح عدد من اليهود من أهم رواد العلمانية ومن أكثر الداعين لها حماسة وتطرفاً ويعود ذلك لنوعين من الأسباب.

النوع الأول: العوامل الداخلية وهي التي ارتبطت بالجماعة اليهودية نفسها و أبرز الأسباب التي دفعت اليهود إلى العلمانية(7):

- تمت علمنة أعضاء الجماعات اليهودية بسرعة غير عادية، قذفت بهم بعنف في عالم العلمانية، الامر الذي جعلهم يتجاوزون بقية أعضاء المجتمع في معدلات العلمنة، إذ تمت العلمانية بالنسبة لغير اليهود ببطء وبشكل اقل عنفاً.
- كانت أعداد كبيرة من اليهود أعضاء في الطبقة البرجوازية الصغيرة في الغرب ، وهي طبقة ساهمت بدور أساس في الحرب ضد الإقطاع والكنيسة ، كما إن أعضاء البرجوازية يلتزمون بشكل مطلق بالحراك الاجتماعي ، ولذا فهم على أتم الاستعداد للتخلي عن قيمهم أو خصوصيتهم لتحقيق هذا الحراك .
- كانت أعداد كبيرة من اليهود في حالة هجرة من بلد لآخر والمهاجر، بسبب حركته وعدم انتمائه، يكون عادة من حملة الفكر العلماني.
- يلاحظ إن كثيراً من أعضاء الجماعات اليهودية ، سواء في روسيا أم في الولايات المتحدة ، انخرطوا في صفوف الطبقة العاملة المقتلعة من جذورها ، والتي شكلت العمود الفقري للعلمنة .
- هنالك اخيراً السبب العام ، وهو إن كثيراً من اعضاء الاقليات يتبنون الفكر العلماني ، لانهم يتصورون انه سيخلق لهم الجو الملائم لتحقيق المساواة الكاملة ، بين اعضاء الأقلية وأعضاء الأغلبية ، سواء في عالم الاقتصاد أو في عالم السياسة .

النوع الثاني : العوامل الخارجية: لا نقصد بها المكان فحسب ، وإنما النظريات والأفكار العلمية التي ظهرت في أوربا على وجه التحديد ، وكان لها عظيم الأثر في دفع الجماعات اليهودية باتجاه العلمانية والابتعاد عن الدين ومسائل الروح . واهم هذه الأفكار هي :

- فكر حركة التنوير ، يمكن القول اجمالاً ، إن الحركات الحديثة في اليهودية ، ومنها الصهيونية ، جاءت نتيجة مباشرة لحركة التنوير ، التي ميزت الجو الثقافي العام في القرن الثامن عشر ، ومثلت جهد الإنسان الغربي من اجل تحكيم العقل وقوانينه واحكامه في الجوانب المختلفة في حياة الإنسان .وبقدر ما يتعلق الآمر بالدين اليهودي ، فان دعوة حركة التنوير اليهودية إلى استغلال العقل البشري ، تضمنت جملة أمور ، كان من بينها رفض كل عقيدة دينية أو سلطة شرعية ، واصبح لكل فرد حق تقرير ما يريده ويعتقد به . وقد تركت هذه الحركة تاثيراً سلبياً على علاقة اليهودي بدينه . فقد كفر الكثير من اليهود بدينهم ، ولم يترددوا عن الارتداد عن اليهودية ، واعتناق دين الأكثرية من مواطنيهم (المسيحية) ، املاً في الحصول على مراكز متقدمة في الحياة(8).
- الفكر الاسترجاعي ذو الأصول المسيحية . وهي حركة الاسترجاع المسيحية التي كانت تطالب بإعادة اليهود إلى (موطنهم الأم) ،

حتى يتسنى الإسراع في هدايتهم وتحويلهم إلى المسيحية . فعودة اليهود وهدايتهم وتنصيرهم كانت تعد شرطاً اساسياً لحلول العهد الألفي السعيد (ألف عام سيحكم فيها المسيح المخلص العالم ويسود فيها السلام والطمأنينة) . ولان الأفكار الدينية لا توجد بمعزل عن التحولات الاجتماعية ، فليس من الغريب إذن إن الحركات الاسترجاعية في أوربا ، وخاصة في الدول البروتستانتية ، قد انتعشت في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، عصر التجارة والاكتشافات الجغرافية ، وعصر الاستعمار المركنتلي ، ثم وصلت إلى ذروتها في القرن التاسع عشر ، عصر الامبريالية . ففي هذا العصر اخذ الاسترجاعيون ينظرون إلى اليهود على انهم جماعة دينية يمكن تنصيرها ، وفي ذات الوقت ، نظروا إليهم على انهم جماعة يمكن توطينها في فلسطين لخدمة المصالح الاستعمارية ، وهنا كان دعمهم لإنشاء الحركة الصهيونية على أساس سياسي لا ديني (9).

- الداروينيية : تعد من أهم الفلسفات العلمانية الامبريالية الشاملة . وهي فلسفة واحدة مادية كمونية ، تنكر أي مرجعية غير مادية مفارقة ، وتستبعد الخالق من المنظومة المعرفية والأخلاقية، وترد العالم بأسره إلى مبدأ مادي واحد كامن في المادة ، وتدور في إطار الصورة المجازية العضوية والآلية للكون . والآلية الكبرى للحركة هي الصراع والتقدم اللانهائي ، وهي صفة من صفات الوجود الإنساني ، أما الغاية الكبرى ، فهي البقاء المادي(10).
- النيتشوية : وقد ارتكز الهيكل الفلسفي لأراء نيتشة على فكرة إرادة القوة ، التي عبر عنها بالإرادة على التغلب والانتصار، وبهذا فقد كانت الأخلاق عند نيتشة لاتكمن في البساطة والضعف بل تختفي خلف القوة ، لذلك يجب إن يكون المجهود البشري ينطوي على تطوير أفراد انفس واقوى لان الجنس البشري الراقي أو الفائق (سوبر) هو الهدف للارتفاع نحو المثالية والكمال المطلق(11).

– الفكر الليبرالي أو الرأسمالي : عملت الصهيونية على تبني الرؤية المعرفية العلمانية الامبريالية وما يتبعها من تمجيد لارادة البقاء والقوة ،باعتبارها الضمانة الوحيدة للسيطرة على الثروة والنفوذ ،وهذا يتطلب وضع الضوابط الدينية على الرف (12).

– الفكر الاشتراكي :المشروع الصهيوني مشروع اشتراكي وتعاوني ، وستكون الدولة اليهودية عند قيامها دولة اشتراكية ، وان الصهيونية ستقوم بشفاء اليهود من أمراض العداء المزمن (13).

وعلى أساس هذا الرفض وتوكيداً لهذه النزعة الرافضة للثيوقراطية ، سارت الحركة الصهيونية نحو تبني نظامٍ

سياسي مستمدٍ من الغرب وليس من الشريعة اليهودية .

ثالثاً : العلمانية والحركة الصهيونية

لقد دفعت سهام النقد المسنونة التي وجهتها حركة التنوير اليهودية ضد الدين اليهودي بعده مصدراً للتخلف والتحجر الذين سادا الحياة اليهودية عبر العصور الصهيونية لتقدم نفسها حركة علمانية من خلال الإعلان عن هدفها السياسي المتمثل بإقامة دولة لليهود في فلسطين بوسائل بشرية سياسية تتمثل في الاعتماد على الجهود الذاتية وليس انتظار الإرادة الإلهية من خلال المسيح المنتظر ، إن ذلك الإعلان كان إيذاناً بولادة حركة سياسية علمانية خارج الأطر الدينية اليهودية . ويمكن الاستدلال على علمانية الحركة الصهيونية من خلال .

1. المنظومة الفكرية للحركة الصهيونية .

كثيرة هي التعاريف(14) التي أعطيت للحركة الصهيونية وهي وإن اختلفت في بعض التفاصيل إلا أنها في الأغلب الأعم اتفقت على أن الصهيونية حركة سياسية علمانية وليست دينية وهذا الاتفاق على علمانية الحركة الصهيونية يرتد إلى الاتفاق على تحديد العناصر الأساسية التي ترتكز عليها وهي(15):.

- إنها حركة سياسية بحتة تستمد سلوكها السياسي والاجتماعي من الأفكار المعاصرة وهذا ما أوضحه نور داو بقوله : (تختلف الصهيونية الحديثة عن الصهيونية القديمة بكونها سياسية وليست كالأخرى دينية)
- إنها حركة سياسية تستهدف العودة إلى فلسطين (أرض إسرائيل) وهذا الهدف تبنته الصهيونية لاحقاً بفعل ضغوط المتدينين إذا أنها كانت تريد لليهود كما أشار (لويس براندیس) إلى (أن يعيش اليهود بملء اختيارهم أما في بلاد آبائهم أو في أي بلاد أخرى) بيت أنها _أي الصهيونية_ أكدت على أن هذه العودة ستكون بقيادة الصهاينة العلمانيين وليس بقيادة المتدينين.
- إن جوهر الحركة الصهيونية هو مبدأ القومية السياسية ، إذ كانت الأكثرية الساحقة من الصهاينة الأوائل تشدد في تسويغ برنامجها على الدعوات القومية العلمانية وعلى ضرورة إنقاذ اليهود من الإضطهاد وتحاشوا الدعوات الدينية قدر المستطاع وهذا ما ذهب إليه هرتزل عندما أكد على (أن المسألة اليهودية ليست دينية أو اجتماعية بل هي مسألة قومية) .
- جعلت الصهيونية هدفها الحركي خلق الدولة الإسرائيلية بحيث ربطت نفسها وجوداً أو عدماً بهذه الفكرة .

إن الصهيونية لم تعرف الدين اليهودي ولم تتعرف عليه إلا كأحد الوسائل اللازمة لتحقيق أهدافها الساسية وهي وإن استندت إلى بعض المقولات والأفكار والأساطير الدينية _وهو ما جعل البعض يعتقد أن الصهيونية حركة دينية_ فكان ذلك بقصد كسب الشرعية من جهة وتجنيد عامة اليهود خلف دعوتهم

العلمانية من جهة أخرى وحتى عندما استعانت الحركة الصهيونية بهذه الأفكار وخاصة الأفكار الأساسية (أرض الميعاد والشعب المختار و المسيح المخلص) فقد عملت على تفريغها من محتواها الديني وبصورة أكثر وضوحاً نشير هنا إلى(16) .

- فكرة أرض الميعاد أو صهيون :

وهي فكرة أو مفهوم ديني حيث (صهيون): هو المكان الذي اختاره الرب واصطفاه (بالمعنى الديني) لشعبه المختار للسكن فيه ، إن الاستيطان في صهيون (من الواجبات الدينية التي فرضها الرب على اليهود) ولهذا فهو ارتباط ديني فقط وهذا ما قام به كثير من اليهود عبر التاريخ أما دعاة الصهيونية العلمانيين فلم ترتبط (أرض الميعاد) بهذا المعنى الديني ، فصهيون عند هرتزل مجرد فرصة للاستثمار والاستيطان ولذا فلا أهمية دينية لصهيون أمام أهميته السياسية وهو ما أكده هرتزل أيضاً بقوله (إن الصهاينة لا يطالبون بالقدس ولا بأرض إسرائيل التاريخية وإنما بالأرض العلمانية الدنيوية فقط)

- فكرة الشعب اليهودي المختار أو فكرة الشعب المختار :

يرى الصهاينة أنه لا معنى ولا مضمون ديني لهذه الفكرة وإنما هي فكرة سياسية خالصة ولذلك تطلعوا إلى تأسيس مفهوم جديد للشعب اليهودي والأمة اليهودية بعيد عن فكرة الشعب المختار وهو ما أكده ماكس نورداو بقوله : (إننا لا نريد أن نكون مجرد طائفة دينية بل نريد أن نكون شعباً كبقية الشعوب).

- مفهوم أو فكرة المسيح المنتظر أو المخلص :

وهي فكرة دينية راسخة الاعتقاد عند اليهود عبر عصور التاريخ المختلفة وتعني أن ينتظر اليهود _أينما كانوا_ في صبر وأناة إرسال الله المسيح إلى الشعب اليهودي ، ومن هنا فمن الكفر التدخل في الإرادة الإلهية وتقرير موعد بدأ العصر المسيحاني ولهذا تعتبر نصوص التلمود عودة اليهود إلى فلسطين مخالفة أكيدة للوصايا الإلهية ، إن الصهيونية تجاهلت البعد الديني لهذه الفكرة وهذا ما أكده هرتزل أمام ملك إيطاليا بقوله : (إن اليهود يؤمنون بفكرة المسيح المخلص في الأوساط الدينية فقط ، أما في دائرنا الأكاديمية المستنيرة فليس لمثل هذه الفكرة من وجود بطبيعة الحال) كما أن بن غوريون وصف فكرة عودة المسيح بأنها : (شديدة السلبية) أما نور داو فقد أوضح بجلاء الفرق بين الصهيونية السياسية العلمانية الحديثة وبين الصهيونية الدينية القديمة بقوله : (إن الأولى سياسية وليست كالأخرى دينية صوفية ، فهي غير مرتبطة بالرؤى المسيحانية ولا نتوقع العودة إلى فلسطين بل ترغب في إعداد طريق العودة بجهودها الخاصة)

2. علمانية مفكري وقادة الحركة الصهيونية :

إن علمانية مفكري الحركة الصهيونية الأوائل تتجلى بوضوح باتجاهين أساسيين :

الاتجاه الأول : هو رفض الثيوقراطية أي الحكم الديني للدولة اليهودية الجديدة.

وكان ذلك واضحاً بقوة في أفكار ومشاريع آباء الحركة الصهيونية وفي مقدمتهم" ثيودور هرتزل" ، الذي نجد في كتابه (الدولة اليهودية) العديد من العبارات ، التي تعبر عن رفضه للثيوقراطية أو أي تدخل لرجال الدين في الشؤون الإدارية ، منها على سبيل المثال "سوف لن نسمح بظهور أية نزعات ثيوقراطية لدى سلطتنا الروحية . وسوف نعمل على إبقاء هذه السلطات داخل الكنيس والمعبد .. بينما يكون تكريم الجيش والحاخامين على ذلك المستوى الرفيع الذي تتطلبه وظائفهم القيمة وتستحقه . ولكن يجب عليهم إلا يتدخلوا في الشؤون الإدارية للدولة"(17).

- " سوف يلقى المتسلطون الدينيون، إذا حاولوا التدخل في إدارة شؤون الدولة، مقاومة عنيفة وشديدة من جانبنا (18)".
- " سوف نترك لكل امرئ حرية الوصول إلى خلاص نفسه بطريقه الخاص . وفوق كل ذلك ، لابل قبل كل شيء ، سوف نفسح المجال أمام تلك العصبة الخالدة من مفكرينا الأحرار (اللادينين) لكي يتسنى لهم المضي في تحقيق الفتوحات العلمية ، بصورة مستمرة ولخير الإنسانية جمعاء (ليس لليهود فقط كما يذهب إلى ذلك الحاخامات) (19)" .
- "وسوف لن يلقى أي امرئ الإزعاج بين ظهر انينا من جراء معتقده أو عدمه ، مثلما أن غير اليهودي سوف يتمتع بالحماية والمساواة داخل أسوارنا " (20).
- " سوف يقوم حاخامونا، الذين نتوجه اليهم بنداء خاص ،بتكريس جهودهم وطاقاتهم لخدمة فكرتنا ، وسوف يغرسونها في نفوس الرعية اليهودية عن طريق الوعظ والإرشاد من على منابر الصلاة"(21).

كذلك في يومياته ، لم يتردد "هرتزل" في التعبير عن استبعاده لأي صبغة دينية عن مشروعه السياسي ، حيث قال عام 1895 : " لقد قلت طبعاً للرابي الأكبر في لندن ، كما سبق أن قلت لـ "زادوك كهن " رابي باريس الأكبر ، إنني لا اخضع لأي دافع ديني في مشروعي ، ولا ريب إنني احترم إيمان آبائي ،على الأقل بقدر ما احترم أشكال الإيمان الأخرى " (22). وحينما أعلن الحاخامات عن اعتراضهم واحتجاجهم على عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل 1897 ، كان تعليق "هرتزل" على الشكل الآتي: "لحسن الحظ أن جميع الحاخامين لا يشاركون في هذا المؤتمر "(23).

والى جانب "هرتزل" كان هناك العديد من المفكرين الصهاينة يعبرون عن رفضهم لأي شكل من الأشكال الثيوقراطية في الدولة اليهودية الجديدة فهذا "ماكس نورداو" صديق "هرتزل" ومساعده المقرب ، يعلن عن رفضه لأي دور يمكن إن يلعبه رجال الدين في دولة إسرائيل الجديدة فهولاء في نظره " يمثلون أولئك الناس الذين يجلسون في سفينة أمينة ، ويضربون برؤوس المجاديف على المعرضين للغرق والراغبين في الإمساك بطرف لسفينة بحثاً عن النجاة " (24). أما "بن غوريون" فلم يؤمن بدولة دينية وإنما آمن بدولة

عصرية ، حتى لو خالف ذلك ما ورد في التوراة . أن العمل الصهيوني – عنده – هو الكفيل ببناء هذه الدولة والمحافظة عليها ، وليس الغيبيات والتعاليم الدينية .وفي هذا كتب قائلاً: "القضية الحقيقية هي ألان كما كانت في الماضي ، تتركز فيما إذا كان علينا أن نعتمد على قوة الآخرين أم على قوتنا ، وعلى اليهودي من ألان فصاعداً ، ألا ينتظر التدخل الإلهي لتحديد مصيره ، بل عليه أن يلجأ للوسائل الطبيعية العادية ، كالفانتوم والنابالم مثلاً "(25). واكثر من ذلك لم يتردد أن يعلن عن رغبته هذه بالقول "كنت مصمماً على أن تكون إسرائيل دولة علمانية ، تحكمها حكومة علمانية وليست دينية"(26).

الاتجاه الثاني : عدم تدين مفكري الحركة الصهيونية الأوائل:

فعندما نحاول مثلاً أن نرصد أفكار " هرتزل " الدينية ، نجد ضعفاً واضحاً ظهر في مواقف متعددة. فمثلاً حينما أراد أن يقرأ في خطابه الذي ألقاه على المؤتمر الصهيوني الأول عبارة دينية بالعبرية ، عجز عن ذلك فكتبت له بحروف لاتينية لجهله بالعبرية واليديشية أيضاً (27). فضلاً عن ذلك وجدناه يرفض الطقوس الدينية التي تترتب على الأيمان الديني ، ومثال ذلك أن زوجته كان مشكوكاً في يهوديتها ، وقد رفض حاخام فينا إتمام مراسيم الزواج ، كما انه لم يختن أولاده ، ولم يكن الطعام الذي يقدم في بيته (كوشير) أي مباح شرعاً(28). ولم يكن "هرتزل" وحده على هذا النهج ، وإنما شاركه معظم قادة وآباء الحركة الصهيونية . " فماكس نورداو" لم يكن يعرف عن اليهودية ألا القليل ، وكان لا يكف عن توجيه انتقادات لاذعة للتقاليد اليهودية الرئيسة ، إذ كان يرى أنها شيء مقزز وهي المسؤولة عن مصائب اليهود(29). لقد كان ملحداً يجهر بالإلحاد وكان يرى انه سيأتي يوم يأخذ فيه كتاب هرتزل وضعاً مساوياً لوضع الكتاب المقدس حتى لدى خصومه من المتدينين . بل انه حينما سئل عن مستقبل يوم السبت ، وعن رأيه في استبداله بيوم الأحد ، على عادة الشعوب الأوربية ، لم يرفض هذا الاحتمال (30). أما "حاييم وايزمن" ، فقد كان يتلذذ بمضايقة الحاخامات بشأن الطعام المباح شرعاً(31). في حين إن "بن غوريون" لم يتردد في الإعلان عن ما يمكن عده إلحاداً ، حينما سئل عما إذا كان يؤمن بالله ، فأجاب عن السؤال مَن هو الله ؟ معظم اليهود يتصورونه رجلاً عجوزاً ذا لحية طويلة ، يجلس على مقعد وثير، ويعتقدون أن الله تحدث إلى موسى ، أنا لا اؤمن بان الله تحدث إلى موسى . لقد سمع موسى صوت إنسان في قلبه ،وبذلك عرف أن عليه أن يفعل ما فعل ، بيد أنني لا أومن بوجود قوة مادية فحسب في العالم ..إنني لا أقول لا يوجد سيد لكل هذاالكون "(32). ومن الواضح جداً في هذه الأمثلة ، إن ضعف الأيمان الديني لدى رواد وقادة وآباء الحركة الصهيونية كان له الأثر الأكبر في اضفاء الطابع العلماني على أفكارهم السياسية ، وبالتالي إلي رفض الثيوقراطية نظاماً للحكم في إسرائيل، إنما تقدم يبين بوضوح أن فكر الصهيونية

و مفكريها وقادتها الأوائل كان فكراً سياسياً علمانياً حديثاً لم يرتبط بالفكر الديني إلا بالرابط المصلحي الذي يجعل من الدين اليهودي أداة من أدواة نجاح الصهيونية في الوصول إلى هدفها السياسي المعلن وهو إقامة الدولة السياسية العلمانية .

الخاتمة

هكذا بدت الصهيونية تطوراً إن لم تكن إنحرافاً في التاريخ اليهودي الذي ظل عبر عصوره وفياً ومخلصاً لطابعه الديني ، لقد تحدت الصهيونية كل الظروف وتغلبت عليها فتحدت اختلاف بيئة الولادة الأوروبية الغربية عن بيئة الصيرورة والتشكل العربية وتحدت مأساة الإنسانية وعذاباتها التي جسدها شعب اغتصبت أرضه وهو الشعب العربي في فلسطين وتحدت قوة وعنف الرفض الديني الذي جسده المتدينون الرافضون والمعارضون للطابع العلماني للصهيونية والذين انتقل رفضهم لفكر الصهيونية إلى رفض الدولة التي شيدوها على أرض فلسطين فاعتبروها دولة كفر وإلحاد ودولة اللاشرعية لأنها ثمرة الغطرسة البشرية التي قامت بإرادة بشرية وبمعزل عن الإرادة الربانية التي سيجسدها المسيح المخلص ، إن مفكري وقادة الصهيونية الأوائل امتازوا بدرجة عالية من البراغماتية السياسية فهم لم يستعملوا القوة ضد معارضيهم وهم في الأصل معارضي العلمنة كما استعملوها ضد أصحاب الأرض الحقيقيين وهم العرب الفلسطينيين وإنما استمعوا لهم وحققوا مطالبهم باتفاقية الوضع الراهن عام 1947/م وأخذوا باعتراضاتهم في المناقشات المتعلقة بالدستور وتخلوا عن هذه الفكرة رغم أنها معلم من معالم الدولة السياسية العلمانية الحديثة ، وانسحبت هذه البراغماتية على الأجيال اللاحقة لقادة الصهيونية فحتى عندما لجأت القوة الدينية المتشددة لاستعمال القوة كما حصل في اغتيال اسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل ورمز من رموز تكوين دولتها العلمانية عام1995/م لم يقابلوهم بالعنف وإنما حافظوا على استقرار الدولة وعلى المحافظة على وزن وأهمية هذه القوة الأصولية ، وكان ذلك كله من أجل أن يحافظوا على طابع العلمنة لفكرهم ودولتهم هذا الطابع الذي اعتقد قادة الصهيونية ومفكريها الأوائل إنه مفتاح الحصول على قبول العالم لوجود الدولة الصهيونية على الخارطة العالمية ، فالعالم بمختلف دوله لم يقبل بوجود دولة ذات طابع ديني يهودي ليس تضامناً مع الشعب الذي اغتصبت أرضه وإنما خوفاً من هذا الدين الذي لا يؤمن بوجود للآخر الإنساني خارج أسوار اليهودية ، وخلاصة القول أن المجتمع الإسرائيلي يبدو اليوم محافظاً على صهيونيته العلمانية وحريصاً عليها ولا يبدوا في الأفق القريب أنه مستعد للتخلي عنها حتى ولو كان البديل الدين اليهودي ذاته .

المصادر

(1) : عزيز العظمة ، العلمانية من منظور مختلف ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 1992، ص 18.
(2) : أحمد الواعظي ، الدولة الدينية :ـ تأملات في الفكر السياسي الإسلامي ، ترجمة حيدر حب الله ، بيروت ، دار الغدير للطباعة والنشر والتوزيع ، 2002، ص 65. وانظر أيضاً عادل ظاهر ، الأسس الفلسفية للعلمانية ، ط2، بيروت ، دار الساقي ، 1998، ص 37-38.

(3) : مجموعة باحثين ، الحكومة الإسلامية :ـ دراسات في الفكر السياسي الإسلامي ، بيروت ، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع ، 2005، ص 36-37.
(4) : أنظر :ـ محمد الجبر ، رؤية معاصرة في قضايا التحديث والعلمانية ، دمشق ، دار علاء الدين ، 2003، ص50.
(5) : بتفصيل أكثر أنظر :ـ أحمد الواعظي ، مصدر سبق ذكره ، ص 79-83.
(6) : منذر معاليقي ، معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية ، ط 6 ، طرابلس ، دار إقرأ ، 1986، ص 265.
(7) : عبد الوهاب المسيري ، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، ج1 ، القاهرة ، دار الشروق ، 1998، ص30-31.
(8) عرفان عبد الحميد فتاح ، اليهودية عرض تاريخي ، عمان ، دار عمار ،1997 ، ص159 . وأيضاً :ـ رشاد عبد الله الشامي ، الشخصية الإسرائيلية والروح العدوانية، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 1986، ص 39-50.
(9) عبد الوهاب المسيري ، الأيديولوجية اليهودية ، ق1، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب 1982، ص159 .
(10) عبد الوهاب المسيري ،الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ ، ط2 ، القاهرة ، دار الشروق ،1997، ص252 .
(11) مصطفى غالب ، نيتشة ،بيروت دار مكتبة الهلال ،1979 ،ص105 .
(12) عبد الوهاب المسيري ، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ،مصدر سابق ،ص34 .
(13) انظر بصدد موقف الصهيونية من الاشتراكية ، محمد ربيع ، أزمة الفكر الصهيوني المعاصر ، ط2 ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ص162-168 .
(14) : للإطلاع على التعاريف التي أعطيت للحركة الصهيونية ، أنظر :ـ نديم عيسى خلف الأصولية اليهودية في الكيان الإسرائيلي ، أطروحة دكتوراه منشورة مقدمة إلى كلية العلوم السياسية جامعة بغداد ، 1995، ص23-25. وأيضاً رشيد عمارة ياس ، العامل الديني وأثره في الكيان الإسرائيلي ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية العلوم السياسية جامعة بغداد ، 1992، ص 36-37.
(15) : نديم الجابري ، الأصولية اليهودية ، بغداد ، مؤسسة الفضيلة للدراسات والنشر، 2006، ص 39-40.
(16) : عبد الفتاح محمد ماضي ، الدين والسياسة في إسرائيل ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، 1999، ص 196-197.
(17) تيودور هرتزل ، الدولة اليهودية ، 1896 ، ضمن كتاب الفكرة الصهيونية :ـ النصوص الأساسية ، بيروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، 1970 ، ص121 .
(18) المصدر السابق نفسه ، ص104 .
(19) المصدر السابق نفسه ، ص104 .
(20) المصدر السابق نفسه ، ص105.
(21) المصدر السابق نفسه ،ص98.
(22) عبد الفتاح محمد ماضي ، مصدر سابق ،ص199 .
(23) اسعد رزوق ، قضايا الدين والمجتمع في إسرائيل ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ،1971 ، ص136 .
(24) المصدر السابق نفسه ،ص136.
(25) عبد الفتاح محمد ماضي ، مصدر سابق ، ص272 .
(26) المصدر السابق نفسه ،ص268 .
(27) هدى عبد السميع حجازي ، بعض كلاسيكيات الرفض اليهودي للصهيونية ، مج 4، الكويت ،سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 1983 ، ص126 .
(28) عبد الوهاب المسيري ، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ،ج2، ص 137-142 .
(29) ماكس نورداو ، خطابه في المؤتمر الصهيوني الأول ، في الفكرة الصهيونية ، مصدر سابق ، ص ص130-137 .
(30) عبد الوهاب المسيري ، الإيديولوجية اليهودية ، ق1، مصدر سابق ، ص215 .
(31) رشاد عبد الله الشامي ، مصدر سابق ، ص20 .
(32) المصدر السابق نفسه ،ص272 .